يوليانوس قيصر

ولد هذا العاهل العظيم في القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية عام ٣٣١ للمسيح وابوهُ يوليس قونسطانيس شقيق الامبراطور قسطنطين وحدث يوم ولادة هذا الامبراطور ان فتكَ الجند الروماني بالاسرة المالكة ابقاء للملك بين اولاد قسطنطين الثلاثة وقد نسب الناس هذه المذبحة الى امر من قونسطانس بن قسطنطين وخليفتهِ وانهُ اتاها ليستتب لهُ الملك ويأمن شر الطامحين اليهِ . وسواء كان هو العامل على قتل أسرتهِ او كان براء منها فانا نعلم بوقوع المذبحة وانهُ لم يبقَ من الاسرة المالكة سليماً الاَّ يوليانوس وكاليوس اخوهُ

وكان السبب في سلامة يوليانوس واخيهِ كاليوس المطران مارك الذي اخفاهما ايّان المذبحة وفرَّ يوليانوس الى حوانج اسيا الصغرى متوارياً عن الرقباء مدة من الزمن ثم جاء بلاد اليونان واقام فيها يطلب العلم على اساتذة مدرسة اثينا برغبة وقَّادة وكلهُ آمال باتجاه الملك اليهِ

وما طال الامر بقونسطانس حتى فقد الامل من ان يرزق ذريَّةً ترث الملك من بعدهِ لذلك استدعى اليهِ كاليوس ابن عمهِ وانعم عليهِ . الاَّ انَّ مفاجأة الحمة ابطرتهُ فانغمس في الملذات واظهر من الخمول والقسوة ما أغاظ قونسطانس وربما كان سبب الغيظ تخوُّفهُ منهُ فقلب لهُ ظهر المجن ثم عمل على هلاكهِ فمات وكاد يوليانوس يهلك معهُ فجعل يتنقل من سجن الى سجن سبعة اشهر حتى اتاح الله لهُ الامبراطورة ايزابيا فاتكلتهُ من براثن الاسد وأرسل الى بلاد اليونان وما عتَّم ان استدعاهُ قونسطانس اليهِ فجاء القسطنطينيَّة واقام فيها ستة اشهر لم يؤذن لهُ في خلالها ان يمثل لديهِ الاَّ لبثاً محاطاً بالرقباء يتجسسون اخبارهُ ويترصدون حركاتهِ وهو منقطع عن الناس لا يجتمع باصدقائهِ لئلا تأخذهم وشاية المفسدين

غير انَّ للايام نجعةً ووثبة فقد تغيَّر الحال بقونسطانس وعاد فشعر بانقطاع الذريَّة ووجوب الاعتماد على يوليانوس فقرَّبهُ منهُ ثم زوجهُ من شقيقتهِ هيلانة وسمَّاهُ لقب القيصر ثم رأى ان يعهد اليهِ بولاية بلاد الغال (فرنسا القديمة) فسيَّرهُ اليها اواسط الشتاء

فجاء يوليانوس الى بلاد الغال وهو شاب في مقتبل العمر غير متجاوز الخامسة والعشرين من سنيهِ وهو ما شهد المعارك ولا عرف السياسة ولا خبر الادارة ومع ذلك تولى لمرة الجيش فكان قائداً هماماً ادار شؤونهُ ونظَّم امورهُ وحمل بهِ على البربر فمزَّق شملهم وردهم على اعقابهم خاسرين ونشر لواء العدل ووطد الامن وصرف جهدهُ الى اصلاح البلاد واعلاء

شأنها بالرغم من ارادة قونسطانس السيئة والعوائق التي كان يضعها له تثبيتاً لحسنو واطفاء لشهرتو الا ان اعوانه الحسان في البلاد استمالت قلوب الاهلين اليهِ فحبوهُ كثيراً وكل ذلك كان مدعاة لغيظ عداتهِ وسعيهم بالوشاية عليهِ عند قونسطانس لا سيما وان مروقهُ من المسيحية واجهارهُ في ذلك عتيب استحالل شهرتهِ واستلاب الولاية له فيها كان مزيداً في احقاد خصومهِ وسبباً فعّالاً لاهاجة غضب الامبراطور عليهِ فبعث اليهِ على الفور يأمرهُ بارسال اعظم فرق جيشهِ التداراً واوسعها خبرةً بجدة جيوشهِ في حرب الفرس . قيل ان يوليانوس رغب في تلبية الامر الامبراطوري مع علمهِ بما وراء ذلك من الحيل والاعمال على التنكيل بهِ غير ان الجند لم يرضَ بالامر الامبراطوري ونبذ الطاعة ونادى بيوليانوس قيصر امبراطوراً وقيل ان يوليانوس هو الذي اوعز الى الجيش سراً ان يخلع الطاعة وينادي باسمهِ امبراطوراً وكيف كان الحال فقد كتب لقونسطانس واعلمهُ بما كان من رفض الجند لاوامرهِ وبمناداتهم باسمهِ امبراطوراً . فانكر قونسطانس الامر وحسب ذلك نشوزاً عن الطاعة واغلظ الكلام في رسائلهِ اليهِ واوشكت الحرب ان تستعر نارها بينهما الاّ ان الموت عاجل قونسطانس فمات سنة ٣٦١م واراح الناس من غوائل الحرب وخلا الجو ليوليانوس فتبوأ الاريكة وصار السيد المطاع

تولى يوليانوس قيصر الملك فلم تأخذهُ ابهة السلطة ولا نفخة الجاه وظلَّ على حالهِ الاولى من البساطة بعيداً عن الترفع والزهو يقضي اوقاتهُ في ادارة الاعمال السياسية عاملاً بنفسهِ على اصلاح قانون البلاد والنظر في شؤون الجيش ليصلح عند الحاجة للهجوم والدفاع وهو بين تلك الشواغل الشاغلة لم يقعد عن السعي في هدم كل ما يناد قسطنطين واولادهُ لاسيما النصرانية ضالتهُ التي كان ينشدها من يوم نشأ قونسطانس بامل يبتهِ فتكاً ذريعاً

ولا جرم ان اقدام يوليانوس على ملاشاة النصرانية واعادة الوثنية الى مجدها السابق جريمة لا تغتفر تجاه حرية الضمير وتجاه تقدم البلاد التي كانت على جرف الاضمحلال اثر فساد الآداب الوثنية وانحطاط الفلسفة اليونانية وهرم البلاد الى غير ذلك من الاحوال التي تطلب بجملتها الانقلاب التام لتخلص الامة من الانحطاط وتنتعش من حياة الارتقاء ثوراً قشيباً

ولا يجدر بنا ان نطلق الكلام جزافاً فنذكر تحامل يوليانوس على النصرانية واعتناقهُ الوثنية من غير ان نلمع الى شيء من اسباب ذلك التحامل فلا يخفى ما بذل الامبراطور قسطنطين من الهمة في سبيل تأييد النصرانية ونشر تعاليمها لعزز دعائمها واعلى كلمتهم فكان لا يأتي عملاً من الاعمال الاّ طبق ارادتهم ومنحى يريدون وكثيراً ما كان يرغم الناس على احترام احكام الجامع المقدسة واتباع سننها ومن شذَّ في شيء أخذ تحت طائلة العقاب الصارم

فشق هذا الامر على الكثيرين من الناس لا سيما على اهل بيته وذوي قرباه ثم خطئهُ على الملك قونسطانس وهو وان كان دون ابيه ذكاء وخبرة الاَّ انهُ تحداه في طاعة دعاة الدين والعمل برأيهم واذ انتهى الملك اليه عمل السيف كما سبق باهله من الاسرة المالكة وفرَّ يوليانوس الى اثينا ودخل بين اساتذة مدرستها فانزلوهُ على الرحب واحاطوا به احاطة الهالة بالقمر يلقون اليه العلم ويدرسون فيه الى انقضاء السنة التي يُعزز دعاتها فاتى اهل بيته فشبَّ على ما يريدون يكرهُ ديناً يدين به قونسطانس عدوهُ اللدود

وناهيك بمدرسة اثينا وشأنها من العداوة الشديدة للنصرانية والحكومة المتسلطة بومئذٍ تلك المدرسة التي كانت قبل استحالة النصرانية كعبة العلم اليوناني ومستودع التقاليد الوثنية وصاحبة الحل والعقد في البلاد ثم تغير الحال معها فسلبت اموالها وفقدت وجاهتها وحُظِرَ عليها تعليم معتقدها فلجأت الى الستر بعد الاجهار فلقة تحسب للفناء المطلق الف حساب فجاءها يوليانوس يطلب العلم ويلتجئ اليها من جور عدوها فانصرفت اليه تزيد صدرهُ ان امكن المزيد عداء وحقداً ورجاء ان يعود يوماً الى الملك فيثأر لها فتقنع بالانتقام وحسبها به بديلاً عن الرجوع الى بسطة جاهها القديم

وهنالك اسباب اخر غير ما ذكرناهُ من عداوة يوليانوس لقونسطانس وكراهة اساتذة مدرسة اثينا للقياصرة من النصارى . من ذلك انهُ في اوائل ظهور النصرانية ظهر مبدأ التعصب الديني الذي لم يكن معروفاً من قبلها في الشكل الذي عرف به من بعدها وقد كانت الاديان الوثنية توجب العبادة والعقيدة عندها في المحل الثاني وبعبارة اخرى كانت تكتفي من الانسان بالتديُّن ولا تطالبهُ بالشكل الذي يتدين به . اعتبر ذلك بوسعة الميثولوجية وعدم حصرها بحيث كان كل انسان يفسرها على ما يريد الاَّ انهُ يشترط ان يخلل تفسيرهُ شيء من الخواطر الفلسفية لانهم لم يكونوا يرون في الالهة السفلى الاَّ تمثيل قوى الطبيعة او صفة من صفات الله وهذا لا يمنع ادخال آلهة جديدة الى مجموع الآلهة وليس في ادخالها ما يجرح المبدأ الاساسي للدين الوثني ومن الجهة الثانية كانت مدرسة الاسكندرية تذيع مبدأها القائل بان الدين وان اختلفت ظواهرهُ فهو واحد في ذاته وما اختلافهُ الاَّ من قبيل تعدُّد اللهجات للغة واحدة والى مثل هذا التوحيد كانت ترمي ايضاً السياسة الرومانية حيث ملأت معبدها بجميع آلهة الشعوب الخاضعة لها . وكانت الحالة على ما ترى من التساهل واذا بالنصرانية ودعاتها ينادون بانها دين الله الحقيقي وان ما عداها باطل من صنعة البشر فاهاج ذلك غضب الوثنيين وحملوا على النصرانية واسرفوا في اضطهادها والايقاع باتباعها ولو ان النصرانية اذاعت معتقدها

من غير ان تُشجب معتقدات الآخرين لما رأت مضطهدة بمعنى انها لم تُضطهد لاعتناقها معتقداً جديداً بل لانها احتقرت معتقد الآخرين . ولما قوي ساعدها ثأرت من الوثنيين وبالغت في الانتقام اعتباراً بما عمل الامبراطور قسطنطين وغيره من ظلاة اهل التعصب وذلك ما جعل القسم الكبير من سكان السلطنة الرومانية يكرهون الامرة المالكة ويريدون لها شراً

وأسّد الملك ليوليانوس وهو عارف باخلاق الاهلين واميالهم واقف على سائر شؤونهم فرأى من حكم الرأي ان لا يعطي من غير الوثنيين رجالاً ليشدّ بهم ازره فيخلصوا له الخدمة لان النصارى أيّان حماسهم الديني كانوا لا يؤثرون على مبدإهم شيئاً من الامور الدنيوية لاسيما وانهم لم يكونوا يتصرفون لغير طاعة المطارنة والاساقفة وهم ادلاّؤهم في كل الامور وقادتهم الى ما يريدون والمطارنة القيّمون على حفظ النصرانية وتعزيز تعاليمها فلا يرون فضيلةً ولا يذكرون حسنةً الاّ لمن كان ضمن جدار البيعة وناهيك بحال يوليانوس وموقفه من الدين فكيف يرضون عنهُ او يأخذون بناصره

عرف يوليانوس كل هذه الامور فاتخذ رجال مشورته من اساتذة مدرسة الينا وتهيأ للايقاع بالنصرانية وملاشاتها ولم يكن يجهل ما بلغت اليه من المنعة في اتحاد قومها ومن البسطة في انتشارها وكثرة اتباعها ومريديها وما في سمو آداب معتقدها من القوة التي لا تغلب يضعف آداب الوثنية عرف ذلك كلهُ واقدم على مناواتها وجعل يحاربها في بادىء الامر تحت برقع التساهل الديني فأمر ان تعاد الهياكل الوثنية الى حالها القديم وان تعمل بطقوسها وتقيم الاحتفالات الدينية بملء الحرية على ما تريد وارجع الى القسطنطينية تباع بدعة آريوس اولئك الذين امر بابعادهم لوسطانس وامر ان لا يمنع الوثنيون من وظائف الحكومة الى غير ذلك من الامور التي يدل ظاهرها على التساهل والعدل ولكنها في حقيقة الحال إعمال على اذلال النصرانية واضعافها والامور بمقاصدها

الاّ ان النصارى لم يرضهم منهُ ذلك التساهل المموّه وعرفوا دخيلة الامر وما يبطن لهم من الحقد ويكظم من الغيظ فقابلوا لهُ ظهر المجن وجهر دعاة الدين بعداوته حتى ان القديس اثاناسس عاد الكنيسة يومئذٍ وكوكبها المنير لم ترُدعهُ صولة الملك ولا دفعهُ جاه السلطة عن الاعلان بمساوىء يوليانوس والطعن عليه وان يدعوهُ عدو الله والناس

ذلك ما هاج غضب يوليانوس فمزّق الحجاب وجهر بالعداء واسرف في الاضطهاد فصار يحضر الاحتفالات الوثنية بذاته كما كان يحضرها من قبل القياصرة الوثنيون وامر باحراق الكتب المقدسة ليقابل في ذلك احراق الامبراطور قسطنطين لكتابات بورفير

واغلق مدارس النصارى وحظر على دعاتها الانذار بالانجيل وحسب كل دعوة دينية ضرباً من الجرائم لانها تفرق بين الوطنيين من نصارى ووثنيين واشباه ذلك من انواع الجور والعسف التي اثارت الضغائن واضرمت نار الفتن الدينية في كل السلطنة على ان المنية لم تترك له مجالاً فسيحاً لاخطاءته فتى في ساحة الحرب لم يجاوز الثانية والثلاثين من سنيه فرأس تاركاً في التاريخ له ذكراً كبيراً في العلم والذكاء لكنهُ كان مشوهاً بما اجترم من التعصب الذميم وبما اقترف من الكبائر في اضطهاد النصرانية

***

لم يكن يوليانوس عالماً مدققاً ولا فيلسوفاً محققاً ولكنهُ كان مجتهداً كبير الهمة مقداماً لم يتسع لهُ الاجل ولا مكنتهُ مهام السياسة من الانصراف الى العلم بكليته وسبر غور الحقائق ليتفرَّق في المعارف ويحسب في مصاف الفلاسفة اصحاب الرأي المتبع وانما كان فيهِ ميل شديد للخطابة وخطبهُ رنانة لا تخلو من البلاغة وحدَّة الروح الحربي والشيء الكثير من الفسفسطة والنزوع الى التهكم والقدح . ومما يؤاخذ بهِ ويحط من مقامهِ السياسي والعلمي تعاملهُ في رسائلهِ المعروفة بالميزوبوكون misopogon بالطعن وبذاء الكلام على نصارى انطاكية وهو الحاكم المطلق فيهم والسيد المطاع منهم

واعجب من ذلك انهُ مع وقوفهِ على الحقائق ومعرفتهِ بما في الدين الوثني من الترهات واعتقادهِ بوحدة الله واتباعهِ آداب افلاطون وسخره من خسة الآداب الوثنية وضحكهِ من تقاليدها وبذلهِ الجهد في اصلاحها لتقتدر على البقاء تجاه المسيحية كان يقيم الضحايا ويجمع الحطب ويضرم النار فيهِ ويجس بيدهِ احشاء الذبيحة محاطاً بجماعة من النساء والاولاد

وقد كان معجباً بفلسفة اساتذتهِ اثينا ومع ذلك الاعجاب كان يحتفظ باستقلال فكرهِ ولكن ذلك الاستقلال لم يكن ناتجاً عن قوة كبيرة في ادراكهِ وانما كان من عدم المبالاة مع شيء من مبادىء التشكيك

وخلاصة القول انهُ كان ميالاً للفلسفة ولم يكن فيلسوفاً وكان ذا قريحة وقَّادة ولم يكن كاتباً من الطراز الاول وذا معارف كثيرة لكنها غير بعيدة الغور ولا كافية لاستقصاء القضايا واستيعاب كنهها وذا ارادة قوية تخدم ادراكاً دونها قوة وافتدارًا . هذا هو يوليانوس ومثلهُ خليق بان يكون فيلسوفاً لزمن الانحطاط الذي عمل على محو نمدنهِ مع انهُ كان يرمي الى بقائهِ وتجديد الحياة فيهِ